منهج الجاحظ في اختيار الخطابة الفنيّة

■ د. محمد الصادق الخازمي
كلية التربية /جنزور – جامعة طرابلس

يتّفِقُ مؤرِّخو الأدب العربي على أنّ الجاحظ من أوائل مَن دوّنوا الأدب العربي، وأنّ كتبه في الأدب: البيان والتبيين، والحيوان، والبخلاء... وغيرها من أهمّ الكتب التي حفظت على الأدب العربي نصوصًا كثيرة، لولا أنّه رواها وسطّرها في كتبه لضاعت، ولذهب كثيرٌ منها، ثم هو بعدُ، قد مّد الطريقَ، وتأثّر به مَن بعده مِمّن قرُب عصرُهم منه أو تأخّر، ولذلك تطالعُنا كثيرٌ من أخبارِ الجاحظ ورواياته في كتب ابن قتيبة، وابن عبد ربه، وغيرِهما[1]، فقد فتح البابَ لمن جاء من بعده، وأوقد شمعةَ الأدبِ من ضياء الحياةِ، ووهجِ التدافعِ الإنسانيّ الطبعيّ، فقد كان الجاحظُ يتمتّع بمواهبَ وقدراتٍ كاد ينفرد بها بين معاصريه ولاحقيه، وهو مثلٌ جيِّدٌ على مدى تقدّم العقلِ العربيِّ وتطوّره»[2].

وليس الأمرُ يتعلق بالعقلية وحدها، كما نبّه د.محمد الشيخ في النص السالف، وإنّما له مردٌّ بما انطوتْ عليه نفسُ الأديب الخلاّقة، التي تجيد الاختيار، وتُحسن التنقّل بين أنماط الأدب، وتستطيع أن تفتح الآفاق، فقد كان الذوقُ عند أبي عمرو بن العلاء (154هـ)، وحمّاد الراوية (156هـ)، وخلف الأحمر (180هـ)، وأبي عبيدة (210هـ)، والأصمعي (213هـ)، وأبي زيد الأنصاري(214هـ)، أنْ يختاروا القدامى، وينحازوا إليهم حفاظًا على اللغة، وحرصًا على السلامة وتجنُّبًا للحن، أو لفساد اللسان العربي، حتّى إن السيوطيَّ يذكر في (المزهر) أنّهم حدّدوا (عيّنة الرواية) بحصرهم في قبائل العرب نفسِها، فتركوا الرواية عن بعضها، لزعمهم أنه قد خالط ألسنتَهم لحنٌ، وقد سرى في طبعِهم ضعفٌ، أو أنّ بعضَهم عندهم أفصحُ من بعض، على عللٍ واختلافات، « فالذين نُقِلَتْ عنهمُ العربيّةُ وبهم اقتُدي،

---

1 - ممن نقلوا عن الجاحظ من غير ما في المتن من الأقدمين: المبرد في الكامل، وابن المعتز في البديع، وقدامة بن جعفر في كتابيه: نقد الشعر، ونقد النثر، والرّمّاني في كتابه النُّكت في إعجاز القرآن، وأبو هلال العسكري في الصناعتين، انظر: تاريخ النقد العربي القديم، د.عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، 369

2 - النثر الفني في العصر العباسي الأوّل، د. محمد عبد الغني الشيخ، الدار العربية للكتاب، 1988م، ص281.

وعنهم أُخِذ اللسانُ العربيُّ من بين قبائل العرب، هم: قيسٌ، وتميمٌ، وأسد، فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذَ ومُعظَمُه...ولم يؤخَذْ عن غيرِهم...؛لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغةَ العربِ قد خالطوا غيرَهم من الأمم، وفسدت ألسنتُهم»[1]، وقد أثّر علماءُ اللغة قي الذوق الأدبي، بل ويزعم د. شوقي ضيف أَنّهم أثّروا في السليقة اللغوية السليمة لشعراء الحضر، «فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلاميّ، ووضعوا لهم مقاييسَهما وضعًا دقيقًا، وظلّوا يبعثون فيهم الإيمانَ بأنّ الشعر القديمَ هو القدوةُ المثلَى... وبذلك أصبح اللغويُّون سدنةَ الشعر في هذا العصر وحرّاسِه، فمَن نَوّهوا به طار اسمُه، ومَن لوّحوا في وجهه خمُل وغدا نِسيًا منسيًّا»[2]، وما ينطبق على الشعر في هذا النقل ينطبق —أيضًا– على النثر، فالمزيّة والفضلُ للسابق، ولا قيمةَ، ولا مزيّةَ للمحدَثِ اللاحق.

وهنا تكمن أهمية الجاحظ في التخلّص من تلك العُقد، وتجاوز مزيّة الأقدمين، فقد أخلص الجاحظُ جهدَه للأدب وحده، لا تضرّه وضاعةُ القائلِ ولا زمنُه، ولا يتقيّد بقيد العصر، أو الانبهار بالشخصية الأدبية العظيمة وحدها، فروى في كتبه عن معاصريه، ودوّن الحكايات، والأدب الطريف، وروى أخبارًا عن عامة الناس، هي الآن نكتٌ طريفة، وآدابٌ خفيفة، وروى أيضا عن المجانين والحمقى والمغفّلين، عن أبي ياسين الحاسب، وعن جعيفران الموسوس، وعن طاق البصل، وعن أبي حيّة النميري، وعن الجرنفش، وعن عيناوة، وبهلول... وغيرهم

فخلّص الجاحظُ بذلك أدبه من المعيارية الصارمة التي فرضها اللغويّون، وفتح باب الذوق، والأدب الشعبي واسعًا أمام الرواة، ودارسي الأدب، فكان ذلك مسلكًا جديدًا أفاد منه الأدب العربيّ، وأضاف إليه مادة جديدة مستخرَجةً من الواقع، ومن ذوق الأديب الذي ينظر فيما حولَه من الحياة يختار منها مادته الأدبية المميّزة.

- **منهجه في اختيار الرواية:**

فتح الجاحظ للأدباء مجالا واسعا أن يختاروا نصوصا مختلفة، من القصص، والخطب، والمناظرات، والحكايات القصيرة، من عوامّ الناس، وفقهائهم ودهاتهم، وقادتهم، فكان أدبُه الذي جمعه ينبض بالحياة، ويعجّ بأخبار الناس وصفاتهم، ولم يكن مقتصرا على أدب النخبة، أو على جانب واحد من جوانب الحياة، «فمدار الأمر على إفهامِ كلِّ قومٍ بمقدار طاقتِهم، والحملِ عليهم على أقدار منازِلِهم، وأن تواتيَه آلاتُه، وتتصرّف معه أداتُه»[3].

وليس شرط الأدبِ أن تكون الألفاظُ رائقةً، فخمةً، جزلةً، قويَّةً، وحسب، فقد ورّث

1 - المزهر، السيوطي، ط الحلبي، 211/1

2 - تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ص138

3 - البيان والتبيين، الجاحظ، ت هارون، ج1، ص93

الجاحظُ مَن بعده تقريرَ أنّ الألفاظ والمعاني تتجدّدُ وتتعدّدُ، وليس شرطها شرفَ القائلِ، ولا شرفَ المعنى، « وليس في الأرضِ لفظٌ يسقطُ البتّةَ، ولا معنى يبورُ حتّى لا يصلحُ لمكانٍ من الأمكنة»[1]، وهذه الفكرة الظاهرة الواضحة في ذهن الجاحظ هي التي كَستْ أدبَه حلاوةً، وجعلتْ عليه طلاوة، إذ تنقّل في رواياتِه بين كبار القوم، ورؤسائهم، وسادتهم، وكذلك روى عن السّفلةِ والعوام والمجان، يقول في البيان والتبيين:

« وقال إبراهيم بن هانئ، وكان ماجنًا خليعًا، وكثيرَ العبثِ متمردًا ...»[2].

ويرى الجاحظُ أنّ التنوّع في الاختيارات الأدبية ليس أمرًا جائزا يلجأ إليه الكاتبُ على سبيل الاختيار، وحسب، بل إنّ هذه الحاجة هي حاجة إنسانية تنبع من طلب النفس المزاوجة بين الحالات، وتقديرًا لاختلاف الأمزجة، وطلبًا للترويح، « ليخرج القارئُ من بابٍ إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإنّي رأيتُ الأسماعَ تَمَلُّ الأصوات المطربةَ، والأغاني الحسنةَ، والأوتار الفصيحة إذا طال عليها ذلك...»[3] وعبارتُه المشهورةُ في ذلك: «ومتى لم يخرج السامعُ من شيءٍ إلى شيءٍ لم يكن لذلك عنده موقع»[4]

ويبدو أنّ أدب المسامرة، وضرورات التعليم التي انتشرت في العصرين الأموي والعباسي قد أغنت هذا المجال، ولفتت الانتباه إليه، وهذا ما أدركه الجاحظ مبكرًا.

وأدرك الجاحظُ أيضًا أن الأدب موضوعُه الحياةُ بكلِّ ما فيها، وقد ينبغ في بعض الأمور بعضُ الناس، ويقصرون في أشياء أخرى، فينبغي أن يكون الاختيارُ متوازنا ومفرّقًا حسب الحاجة، ويُستدعَى صاحب الإبداع عند حضور الحاجة إليه، فقد يكون الأديبُ صاحبَ طبعٍ وموهبة في الشعر لكنه ليس كذلك في النثر، «فالإبداع ظاهرة عامة تبدو عند كل الأمم والشعوب، فلا ينبغي إغفال الفوارق الفردية في هذه الظاهرة التي تبرز في فرد دون آخر، حتى داخل الأسرة الواحدة...»[5]

وأخذ الجاحظ بكل هذه الاعتبارات جعلت منهجه مميزا، يَنمّ عن ممارسة ودربة ومعرفة، فقد لاحظ الفروق بين الأمم، وأنّ بعضها في بعض الصناعات والصفات خيرٌ من بعض، فالتركُ مثلا يتفوّقون في تدبير الحروب، « ولـمّا كانوا كذلك صاروا كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات...وكآل ساسان في المُلك والرياسة».[6].

وآخر مميزات منهجه النقدي معرفتُه بشخصية المبدع نفسها، فقد يكون صاحب مهارة

1 - المصدر السابق نفسه، ص93

2 - المصدر السابق، ج1، ص93

3 - الحيوان، الجاحظ، 162/7

4 - البيان والتبيين، 179/1

5 - مناهج النقد الأدبي والدراسات النقدية، د. عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م، ص15

6 - رسائل الجاحظ، ت: هارون، ج1 ص77

وموهبة في الشعر، ولا يكون كذلك في الخُطب، أو في الرسائل والأسجاع، إذ إنّ بعض فنون الأدب تحتاج موهبة خاصة تناسب بعض الأدباء، ولا يحوزها بعضُهم الآخر، كالشعر مثلا، فإنه يعز جدًّا على غير أهله، ولو كانوا من ذوي البراعة في تذوقه ونقده.[1]

وهذه الخصائص العامة التي ميّزت منهج الجاحظ في الاختيار والرواية تُكوِّن في مجملها أسلوبَه في عرض فن الخطابة، لكنه قبل أن يدلف إلى النصوص الخطابية تحدّث عن الأصول النقدية التي يسلكها الناشئة في هذا الفن، والتي تُعَدّ قواعد وأسسًا نقدية هامة يستفيد منها الدارسون والنقّاد.

● **الشروط الشكلية:**

التفت الجاحظُ إلى أهميّة الآلة التي ينبغي أن يتسلّح بها الخطيبُ، فتحدث عن آفات اللسان، وعيوب النطق، كاللثغة، والفأفأة، والتمتام، والألفّ، والحُبسة، والعُقلة،[2]، ولا ينسَى الجاحظُ أن يأتي بطرفةٍ يروِّح بها عن القارئ، فيروي أن أبا رمادة طلّق امرأته حين وجدها لثغاء، فخاف أن تأتيه بولد ألثغ، فقال:

لثغاءُ تأتي بِحِيَفْسٍ أَلْثغ ** تَميسُ في المَوْشِيّ والمُصبَّغ[3]

وأحيانًا تكون العيوب خَلقيّة، فتفسد على الخطيبِ رونقَ خطبته، وتقلل من وقعِها في نفوسِ المتلقّين، ومن ذلك أن الجاحظ يرى:» أن زيد بنَ جندب كان أشغَى أفلح، ولولا ذلك لكان أَخطبَ العرب قاطبةً، وقال عبيدةُ بن هلال اليشكري في هجائه له:

أشغَى عَقَنباةٌ ونابٌ ذو عَصَل ** وقَلَحٌ بادٍ وسِنٌّ قد نَصَل[4]

ومن العيوب في آلة النطق التي لاحظها الجاحظ في الخطباء أن منهم من كان أشغى، أو أشدق، أو أضجم، أو أفقم... وروى في كل ذلك الشاهد والمثل[5].

وفي مقابل هذه العيوب هناك ميِّزاتٌ تزيد الخطبة جمالاً ، والخطيبَ توفيقًا، منها: جهارة الصوت، وسعةُ الفم، وصحّةُ الثنايا، فقد « كانوا يمدحون الجهيرَ الصوتِ، ويذُمُّون الضئيلَ الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعةَ الفمِ، وذمُّوا صِغَرَ الفم»[6].

وبسبب ذلك كانوا يقولون هذا الخطيب الأشدق، فسعة الفم، ميزة للخطيب، إذ بها يزيد الحروفَ تفخيمًا، ويخرجها من أفضل مخارجها، مستوفيًا لحقوقها، ومستجمِعًا لصفاتها، ولذلك يرى الجاحظُ أن وصف عمر بن سعيد بن العاص بالأشدق إنّما هو لإجادته الخطابة،

1 - يروي الجاحظ أن ديسيموس وهو من موسوسي اليونان كان يُعلِّم الناسَ الشعرَ ولا يقوله، فلمّا سُئل عن ذلك قال: أنا مثل المِسَنّ الذي يشحذ ولا يقطع، البيان 226/2

2 - انظر البيان والتبيين، 34/1، 37/1، 38/1، 39/1، 57

3 - المصدر السابق57/1

4 - البيان، 55/1

5 - المصدر السابق نفسه.

6 - البيان، 121/1

وقوته فيها وليس بِسبب الفَقَمِ والفَوَه، كما يزعُم بعضُ الرواة، وهذا التخريج دليلٌ على بَصَرِ الجاحِظ بالأخبارِ ونقدِه لها نقدَ العارف الماهر، ويروي في هذا السياق طائفةً من الأخبار والقصص عن تسمية (الأشدق) لبعض الخطباء المبرّزين.[1]

● **الشروط الموضوعية:**

ولعل الجاحظ من أوائل النقاد الذين دوّنوا معايير نقدية مهمّة في صناعة النثر، بما نقله من آراء وسجّله من كلام العلماء البصيرين بالأدب، الذين صفت قرائحهم، وطالتْ ممارستُهم للخطباء والقصّاصين وغيرهم، فيروي مثلا عن أبي داود بن حريز: « تلخيصُ المعاني رِفقٌ، والاستعانةُ بالغريبِ عجزٌ، والتشادقُ في غير أهل الباديةِ بُغضٌ، والنظر في عيون الناسِ عِيٌّ، ومَسُّ اللحية هُلكٌ، والخروجُ ممَّا بُنِيَ عليه أوّلُ الكلامِ إسهابٌ»[2]، ويروي نصًّا آخر جامعا مانعا أيضا عن ابن حريز[3] أيضًا، يقول فيه: « رأسُ الخطابةِ الطبع، وعمودُها الدربة، وجناحاها روايةُ الكلامِ، وحَلْيُها الإعرابُ وبهاؤها تخيُّر الألفاظ، والمحبَّةُ مقرونةٌ بقلّة الاستكراه.»[4]

والنصُّ الثاني مهمٌّ جدا في النقد النثري، فهو يقدّم للقارئ والأديب أهم عناصر النجاح في أداء خطبة رائعة متماسكة تقوم على: سلامة الطبع، وجودة القريحة، وهما يعنيان بالمفهوم المعاصر (الموهبة) فشرط الموهبة التي يتمتّع بها الخطيب هي التي تجعله ينجح في خطبته، ويكون رائعا في أدائها، لكنها غير كافيةٍ وحدها، فعمودها الذي تقوم عليه وترتفع به: الدربة التي تعني التمرين، والتعلّم، والتدريب المتّصل، من أولي العلم والفهم، أما جناحاها اللذان تطيرُ بهما فالرواية؛ ومعناها الاستشهاد، والاحتجاج، وإيراد النصوص المختلفة في محلها، وفي وجهها الصحيح، والنصوص التي تدعم الخطيب فيما يقوله أمام متلقّيه مهمةٌ إذ تسند أقواله وتدعمها، وزينة الخطبة في سلامة الإعراب، والابتعاد عن اللحن والخطأ، وأشد بهائها وزينتها في حسن اختيار الألفاظ التي تعبر من أقصر الطرق عن معانيه، ويكون لها طلاوة، وجمالٌ، وحسنُ وقعٍ على المستمعين، والمحبّة وكمال التقدير يقعان في ترك التكلّف، الابتعاد عن استكراه المعاني والألفاظ.

---

1 - البيان 1/121، وما بعدها

2 - البيان 1/44

3 - لم أقف له على ترجمة، وفي البيان والتبيين يجعل المحقق العلاّمة عبد السلام هارون اسمه تارةً: أبا دُواد بن حريز، وأحيانا أبا داوود بن حريز، وأحيانا يردفه بلقب الإيادي، وفي الهامش يشير إلى أن إحدى النسخ تجعله بالجيم (جرير)، وهذا العلم من الأعلام القليلة التي لم يحقّقها ويترجمها العلامة هارون على دقّته واستقصائه وسعة علمه، والظاهر أنه من الأدباء القريبي عهد بالجاحظ ففي سنده إليه يرويه عن محمد بن عبّاد بن كاسب، كاتب زهير، ومولى بَجيلة، من سبي دابق، وكان راويةً شاعرا، وطلاّبةً للعلم علاّمة، قال سمعتُ أبا داوود...، وهذا السند يدل على قربه من عصر الجاحظ، فهو إما عباسي أو في آخر العصر الأموي على أكثر تقدير، وظاهرٌ أن الكلام في النقد الأدبي تأخّر حتّى ذلك العصر.

4 - البيان،1/44

أما النصُّ الآخر فيتحدث عن التقويم الخارجي للخطبة من حيث الأمور الموفّقة التي ينبغي أن يحيط بها الخطيب، كتلخيص المعاني، وتقريبها للأذهان، والبعد عن الحركات التي تَشينه مثل مسّ اللحية، فهو أمر يُشتِّتُ انتباه المتلقي، ولا يليق في مقام الأخذ بانتباه السامع، والحرص على تركيزه، وكذلك الإسهاب، والخروج عن الموضوع الرئيس للخطبة، وغير ذلك مما أجمله أبو داوود بن حريز.

واختيار هذين النصّين غير المشهورين يعطيان دلالة خاصة على ما حاول الجاحظُ جمعه حول الخطابة، من الناحية النظريّة، أو لنقل من (الناحية النقدية)، لكنّهما لم يكونا النصين الوحيدين فقد أضاف إليهما نصوصا أخرى، لعل أشهرها صحيفة بشر بن المعتمر، وروى لغيره أيضا من المتكلّمين، والبلغاء والخطباء، بيدَ أنّ الأهمّ الآن أن ننظر إلى التطبيق في اختياراته للخطب، كيف جمعها؟ وما هو موضوعها؟ وهل ناسبت معاييره النقدية التي رواها.

يروي الجاحظ في البيان والتبيين كثيرا من الخطب الطويلة منها والقصيرة، وعن خطباء مختلفين، من أئمة، وقادة، وبلغاء، وفقهاء، ومتكلّمين... وغيرهم.

وقد روى الجاحظ في كتبه الخطب القصيرة والطويلة، «... ولكل ذلك مكانٌ يليق به، وموضعٌ يحسن فيه...ووجدنا عددَ القصار أطول، ورواةَ العلمِ إلى حفظها أسرع، وقد أعطينا كل شِكلٍ من ذلك حظَّه من الاختيار ووفيناه حظه من التمييز ...»[1]

وفي سياق بحثه عن خصائص الخطبة تحدّث الجاحظ طويلاً عن خطبة النكاح، تقاليدِها، وأصولِها، وصعوبتِها، فمن تقاليدها أن يُطيلَ الخاطبُ، وأن يختصر المجيبُ، ولعلّ علّةَ ذلك أن الخاطب مضطرٌ إلى ذكر مناقب الخاطب، من شرفٍ، وفضلٍ، وحسبٍ، ونسبٍ، ومالٍ،... وغير ذلك، وأنه لا يليق بالمجيب إلا أن يختصر دفعًا للملل والسأم، وجريًا على عادات العرب، ومن تقاليدها أن تُلقى من جلوس، وليس من قيامٍ كسائر الخطب، « قال الهيثم بن عدي» لم تكن الخطباءُ تخطب قعودًا إلا في خطبة النكاح»[2].

وفي الجلوس قربُ الوجوه من الوجوه، والأحداقِ من الأحداقِ، ولعلّ ذلك من الأسباب التي خرّج بها ابن المقفّع قول عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– : « ما يتصعّدني كلامٌ كما تتصعّدُني خطبةُ النكاح»[3]، ويروي الجاحظ أن بعض العلماء فسّروا حرج أمير المؤمنين من ذلك إنما هو لاضطراره لتزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه، فيكون قد قال زورا، وغرَّ القومَ من صاحبِه، لكنّه بنظرة الناقد الأريب يدفع هذه العلة بما يعرفه من شخصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي لا تقبل المجاملة، ولا تخاف في الله لومة لائم،

1 - البيان ،7/2.
2 البيان1/118
3 - البيان 1/117

ومَن هذه صفاتُه وأخلاقُه، فهو بعيدٌ عن أن يزكّيَ أحدًا بما ليس فيه.[1]

ومن تقاليد خطبةِ الجمعة قصرُها، وإطالة الصلاة، روى الجاحظُ عن أبي حسن المدائني أن عمار بن ياسر تكلّم يوما فأوجز، فقيل له: لو زدتنا، فقال: أمرنا رسولُ اللّهِ –صلى اللّه عليه وسلّم– بإطالةِ الصلاةِ وقصر الخُطب.

واحتفاظُ بعض أنواعِ من الخطب بتقاليد خاصة كالقِصَر، أو أدائها من قعود، يدلّ على أنّ اهتمام الجاحظ بهذا الفن دقيقٌ متنوِّعٌ، حرص فيه على تسجيل كل التفاصيل، ولم يكتفِ بالكلام العام المسترسل، وإن كان التصنيفُ والترتيبُ متناثِرًا في تضاعيف كتابه فإنّ الباحث المدقّق سيجد صورة كاملة متناسقة للتقاليد العربية في الخطابة جُمِعتْ بعنايةٍ في الرواية، وعناية في البحث والتحليل أيضًا.

● **كيفية اختيار الخطباء:**

وبعد أن أوفى الجاحظُ كثيرًا من الشروط الشكلية والموضوعية للخطبة، بدأ في سرد نماذج مختلفة للخطابة، وتأثُّرًا بالمنهج التاريخي – فيما يبدو– روى الجاحظُ أنّ من الأنبياء عليهم السلام خطباءَ، كشعيب ، وداوود –عليهما السلام–، ولعلّ هذا التذكير بمزايا الأنبياء قد سيق في إطار التنويه بشرف الخطبة والخطابة، وأنّها وسيلةٌ أدبيّةٌ عظيمةٌ في الإقناع والدعوة إلى اللّه، مع ملاحظة أنّ هذا الذكر لم يُشفع بنماذج تُروى، وإنّما هي رواية عن أحاديث عن النبي ﷺ.

ومن باب أولى التنويه بخطب المصطفى عليه الصلاة والسلام، «فهذه خُطبُة مشهورةٌ مخلّدة..»[2]، ويظهر ذوقُ الجاحظ الأدبي جليًا في اختياره لخطبة النبي عليه الصلاة والسلام التي قال فيها:

« أيُّها الناسُ، إنّ لكم معالمَ فانتهُوا إلى معالمِكم، وإنّ لكم نهايةً فانتهُوا إلى نهايتِكم...»[3]

وهي خطبةٌ عظيمةٌ موجزةٌ بليغةٌ، جمعت جَمال الألفاظ إلى المعاني الجليلة الموجزة المختصرة، ومثلها في الإيجاز الذي ضم أصول الدين، والوصية الخاتمة خطبةُ الوداع وقد رواها الجاحظ كاملة أيضًا.

ثم روى الجاحظُ خطب الأمراء والملوك والساسة، ومنهم: أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وروى خطبا لقادة دهاة كزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، ويوسف بن عمر، وخالد بن صفوان القسري، وعبيد اللّه بن زياد ... وغيرهم

1 - المصدر السابق نفسه
2 - البيان 201/1
3 - البيان 303/1

والملاحظ أنّ خطب هؤلاء تجمع بين سياسة الدين والدنيا، فمضامينها تنطلق -غالبًا- من أُسُسٍ دينية لُتقرِّر بعدَها وبناءً عليها سياسة الخطيب، أو توجّه الدولة، أو طلبات الخطباء إلى الرعية، وتختلف الخطب باختلاف القائل والمناسبة والزمان، وتلك أمور تتعلق بالمضامين التي تحكمها سياقات مختلفة في كل وقت، لكن الشروط الشكلية والمنهجية التي سبق أن تقدّمت في هذا البحث من الجاحظ متحقِّقةٌ فيها، ومن ذلك مثلا، خطبة الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- التي يقول فيها:

«أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بوداع، وإنّ الآخرة قد أقبلتْ وأشرفتْ باطّلاع، وإن المضمار اليومَ، والسباقَ غدًا...»[1]

وهي تجمع كثيرا من فنون المقابلة والمطابقة، ويحلّيها (المزدوج) فن الجاحظ النثري المفضّل، فكان هذا النموذجُ تطبيقًا عمليًا للاختيار الذي انتخبه الجاحظ من النصوص الكثيرة التي أوردها من الخطب السياسية والدينية.

وفي الجانب المجتمعي، صنّف الجاحظُ نماذج كثيرة لخطباء القبائل، وخطبهم ليست ببعيدة عن سياسة الدنيا، ولكنها أيضا تحمل مضامين اجتماعية وخلقية عامة، كما هو السائد في الموضوع الرئيس للخطابة في عصر الجاحظ وما قبله، ومن ذلك أنه ذكر خطباء إياد، وخطباء تميم، وخطباء بني ضبّة، وخطباء (ضروبٍ شتّى من القبائل)[2].

● **نقد النصوص:**

ومع كثرة روايات الجاحظ وتنوعها، وإسناده في رواياته إلى العلماء الثِّقات، والأدباء المتخيَّرين، والرواةِ العالمِين، فإنّه يتدخّل في بعض الشؤون، فيؤيد بعضًا من الأقوال، ويرفض بعضها حينما يسنح له، أو يبدو له الأمرُ، كما في روايته عن أبي الحسن المدائني[3] في تصنيف الخطباء وذكر مراتبهم، « أبو الحسن قال: كان أبوبكر خطيبا، وكان عمر خطيبا... ومن خطباء النسّاك والعبّاد: الحسن بن أبي الحسن البصري، ومطرّف بن عبد الله الحرشي، ومورِّق العجلي، وبكر بن عبد الله المزني، ومحمد بن واسع الإيادي، ويزيد بن أبان الرقاشي، مالك بن دينار الساميّ[4]»[5]

1 - البيان 52/2
2 - المصدر السابق، 1/52-1،54/341، 1/1،348/353
3 - يُكثر الجاحظ من الرواية عن أبي الحسن المدائني ت224هـ، وهو من كبار الرواة المشهورين جدا، وثّقه يحيى بن معين وغيره، يقول عنه أبو العباس ثعلب: من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني، وقد خصصته بهذا الهامش لكثرة ذكر الجاحظ عنه، ولأهميّته في رواية كثير من الأخبار والنصوص، وإسناد الجاحظ عنه يدل على اهتمام خاص بالأسانيد، وبتوثيق النصوص توثيقا صحيحا خاليا من الافتراء والوضع.
4 - من كبار العلماء المشهورين، وأكثر كتب التاريخ والتراجم، وكتب الفقه أيضا تذكره باسمه المجرّد: مالك بن دينار ت120هـ، وهذا النصّ من الجاحظ انفرد فيه بذكر كلمة (الساميّ) في نسبه، وعلّل أ. هارون ذلك بأنّه كان مولىً لامرأة من بني سامة بن لؤي، واهتمام الجاحظ هذا مردُّه إلى اهتمامه بالموالي والعرب، فهو يعطي إشارات متفرقة عن ذلك في كتابه، ولعلّ وقتًا آخر يسعفني في تتبّع ذلك، واستخلاص بعض النتائج المتعلقة به.
5 - البيان 1/353-354

ولا يدعُ الجاحظ هذا النص يمرّ هكذا دون تعليق، مع أنه رواه عن المدائني شيخه الذي يكثر عنه الرواية، فالرؤية الفنّية لمفهوم الخطابة عنده تقتضي إخراج بعض من ذكرهم المدائني من عِداد الخطباء المفوهين المعروفين، « فليس الأمرُ كما قال؛ في هؤلاء القاصّ المُجيد، والواعظُ البليغُ، وذو المنطق الوجيز. فأمّا الخُطبُ فإنّا لا نعرفُ أحدًا يتقدَّمُ الحسن البصريَّ فيها »[1].

وظاهرٌ من هذا النص أنّ الجاحظُ يفرّقُ بين فنون النثر تفريقًا حازمًا، ويُفردُ الخطابة بمحلٍّ منفصل مؤثر، ولا يقبلُ أن يُصنّف خطيبًا من ليس بخطيب، وإن كان من كبار الأدباء الأفذاذ، ومن تُروى لهم الكلماتُ البليغةُ، والمواعظ الرِّقاق، أو الأجوبة المسكتة ... أو غير ذلك من فنون النثر، فللخطبة أصولُها، وشروطُها، ومضمونُها، الذي إنّ غلبت السياسة أو الدين عليه، فإنّ ذلك اختصاصٌ أصيلٌ للخطبة إن لم يوفّق إليه الخطيبُ ولم يشتهر عنه دربةٌ فيه، ورواية عنه، فليس بنافعه أن يكون مجيدا في فنون النثر الأخرى، أو بارعا في بعضٍ منها.

وهذا لا ينقص من قدر هذا، فقد يكون المرء أديبا لا معا قديرا في المقطّعات أو الرسائل أو الأجوبة، لكنه لم يكن بخطيب، يقول الجاحظ عقب ذلك» وهؤلاء إن لم يكونوا بخطباء فإنّ الخطيب لا يشق غبارهم»[2].

ويمكن تصنيفُ هذا النقد بأنّه من باب الالتزام الصارم بأصول الفنون، والفصل بينها، وجعل كل أديب في محلّه المناسب منها، ورفض الخلط في التصنيف.

وهذا الالتزام يؤسس لاكتمال تصوّر الجاحظ لفن الخطبة، فلا يكفي أن يحشد الناقدُ النصوص الأدبية، والنصوص التقويمية أو النقدية في صعيد واحد ليكون ذلك كافيا لإثبات نظرته، بل لا بدّ من التفصيل والتدقيق، ففرّق الجاحظُ بين الخطابة، وبين ما يشبهها من فنون النثر الأخرى، ومن ذلك القصّ، والوعظُ، والأجوبةُ، والأمثالُ، والمقطّعات الصغيرة ...وغير ذلك.

وكل تلك الفنون قد أفرد لها الجاحظ أمثلة وافية في كتابه، لتكون الصورة أمام القارئ مكتملة، ومدلَّلا عليها بالشواهد من النصوص الأدبية، ومن أقوال العلماء، ومن التنبيهات النقدية الممحِّصة.

و كما ظهر لك فإنّ الجاحظ يهتم بإسناد أغلب نصوصه، ويناقش النص إن ثبت لديه، فيصوِّبُه أحيانا، ويعارضه أخرى، وأحيانا يتحدّثُ الجاحظ في نقد النصّ نفسه، ليصل إلى التشكيك في النسبة، أو السند من أساسه، ويسميه علماء الحديث (نقد المتن)، كما في روايته لخطبة معاوية التي بدأها بقوله: « أيها الناسُ، إنَّا قد أصبحنا في دهرٍ عنودٍ،

1 - المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.
2 - البيان 354/1

وزمنٍ شديد...» مع أنّه رواها عن ثقة معروف[1] غير أنّ تحليل النصِّ نفسِه قاد الجاحظَ إلى التشكيك في نسبة الخطبة إلى معاوية بن أبي سفيان، فالخطبةُ يغلب عليها طريق الوعظِ والزهد، وهو ما لم يكن مشتهرا به معاوية ولا معروفًا به، وطريقة الخطبة في التذكير بالآخرة، والتحذير من الدنيا، والدعوة إلى الزهد فيها، لا تُشبه سيرةَ معاوية ولا طريقته، وشيءٌ آخر مهم، وهو أنّ الخطبة غير مناسبةٍ للسياق العام، والجو العام الذي دعا من أجله معاويةُ الناسَ، ولذلك» فالكلام أشبهُ بكلام علي –رضي الله عنه– ومعانيه وحالِه، منه بحال معاوية»[2].

وربما لهذه الأسباب الموضوعية، التي خالفت روايةَ الثّقات ألحقَ الشريفُ الرضي هذه الخطبة بخطب الإمام علي في نهج البلاغة[3]، واعتمد في ذلك على تقويم الجاحظ وذوقه الفني، واتّفق معه في إسنادها للإمام علي بسبب المضمون، والأسلوب الفني الشديد الشبه بأسلوب الإمام وطريقته.

وكل ذلك يدل على أنّ للجاحظ منهجًا نقديًا مميّزًا يلجأ إليه لتقويم النصوص ونقدها، وأنه لا يعتمد الرواية عن الثقات فحسب، بل ينظر، ويدقق، ويحلل المضمون، فهو يمارس عمله النقدي بحرفية الناقد البصير، وليس بمنهج المؤرخ الذي يحمل الغث والسمين.

● **خلاصة:**

من كل العرض السابق المختصر، يتضح لنا بعض النتائج التي نجملها في الآتي:

اهتمّ الجاحظُ اهتمامًا خاصًّا بالخطابةِ الفنيّة، وحاول أن يعالِجها معالجة نقديّة متميزة، برواية آراء النقاد المختلفين حول الخطابة، وجمعها في صعيد واحد، أمام القرّاء، وهذا جهدٌ مبرور وحده.

أفاد الجاحظُ من أسلوب تعليم الخطابة عند بشر بن المعتمر وغيره في تأكيد قيم الخطابة، وأسلوبها، وساعات التمكن من الإجادة فيها.

اختيارات الجاحظ ناسبت ما قدّم له من آراء نقدية، وعنايته باختيار النصوص، تجمع بين دفع السآمة والملل عن القارئ، والإجادة الفنية المميزة.

للجاحظ عناية بالتأريخ، وعناية بالمجتمع أيضا، في سرده للخطباء، وفي ذكر أعلامهم، وأكبر مبرِّزيهم.

فرّق الجاحظُ بين الخطابةِ، والفنون النثريّة الأخرى، ورفض أنْ يُلحقَ بالخطباء من ليس منهم، من الأدباء الذين لهم إجادة في فنون النثر الأخرى، كالرسائل، والأجوبة، والمقطّعات، والقصِّ، والوعظ،... وغير ذلك.

1 - شعيب بن صفوان، قال العلامة هارون: وثّقه ابن حبّان في كتبه.
2 - البيان 61/2
3 - نهج البلاغة،141/2

ويقرّ الجاحظُ – مع ذلك- أن بعضَ الأدباء لهم مرتبةٌ تعلو مرتبةَ كثيرٍ من الخطباء، وهذا لا يعني أن يُنسَبُوا إلى الخطابة.

اهتمّ الجاحظُ بنقد الرواة، ونقد المتون أيضا، ومحّصها في كلام مختصر، فردّ بعض النصوص، وشكّ في صحّة نسبةِ بعضها في حين آخر.

وبعد،،،

فهذه معالمُ من منهج الجاحظ في معالجة فنّ الخطابة، وقد كان لها من أدبه وكتبه مكانةٌ خاصّة بسبب تأثيرها البالغ في الحياة العامة، ولكونها فنًّا عظيما له أسس خاصة لا يجيدها إلا قليلٌ من الناس، وظاهرٌ أنّ الجاحظ حاول أن يفيد ناشئة الأدباء والكتّاب، فجمع بين التنظير والتطبيق، وجمع من شواهد الخطب ما يكفي لتنمية الأذواق، وتبيين طرائق المجيدين والمصقعِين من الخطباء، و كلام الجاحظ في التنظير وإن كان مبثوثا في ثنايا كتبه، ومفرّقًا بين النصوص فهو – ولا شك – عند تتبعِّه يعطي صورة منهجٍ مكتمل المعالم، ولعل لكاتب هذه السطور عودة أخرى في دراسة متّصلة بهذه الدراسة إلى إبراز جوانب أخرى من منهجه النقدي.

● **المراجع:**

■ الجاحظ، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7، 1998م.

■ الجاحظ، الحيوان، ت: هارون، مكتبة الحلبي، ط2، القاهرة.

■ الجاحظ، رسائل الجاحظ، ت: هارون، مكتبة الحلبي، القاهرة.

■ الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ت: د. النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2000م.

■ السيوطي، المزهر، ، ط الحلبي، (ب.ت)

■ د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ، دار المعارف

■ د.عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد العربي القديم، دار النهضة العربية.

■ د. عثمان موافي، مناهج النقد الأدبي والدراسات النقدية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م

■ ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ت: السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ،2003م

■ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ت: الداني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان،2009مبم

■ د.محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

■ د. محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأوّل، الدار العربية للكتاب، 1988م.

■ أبوهلال العسكري، كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، ت: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م